من آيات الله

تسخير البحر وما فى السموات والأرض

قال تعالى فى سورة الجاثية: ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ١٢, ١٣].

والمتأمل فى هاتين الآيتين يجد أنهما تحثان أولئك الذين استحقوا لآيات الله، ووقفوا موقف التدبر والتبصر، على أن يسرعوا الخُطا إلى الله، وأن يستجيبوا لما يدعوهم إليه الرسول من خير وهدىً، وأنهم إذ يتجهون إلى الله ليجدون هذه الدعوة المجدَّدة إليهم، والكاشفة لهم، عن جلال ربهم، وعظمته، وقدرته، وماله من فضل وإحسان إليهم.

فهو سبحانه الذى سخر البحر ومكن للناس من أن يجعلوه طريقاً ذلولاً، تجرى الفلك عليه، كما تجرى الدواب على اليابسة. كل هذا بأمر الله وحكمته، وهو سبحانه الذى قدر بحكمته أن تطفو بعض الأجسام على الماء حسب قانون محكم لا يتخلف أبداً.

ومن عجب أنه بحكم هذا القانون أن يلقى بالحصاة الصغيرة فى الماء فتغوص فيه، على حين أنه يلقى فوق ظهره بالسفينة محملة بالدواب، والناس، والأمتعة، فتظل سابحة فوقه.

إن هذا المخلوق الصغير الإنسان يحظى من رعاية الله سبحانه وتعالى بالقسط الوافر الذى يتيح له أن يسخر الخلائق الكونية الهائلة، وينتفع بها على شتى الوجوه، وذلك بالاهتداء إلى طرف من سر الناموس الإلهى الذى يحكمها، والذى تسير وفقه ولا تعصيه ولولا هذا الاهتداء إلى طرف من السر ما استطاع الإنسان بقوته الهزيلة المحدودة، أن ينتفع بشئ من قوى الكون الهائلة، بل ما

استطاع أن يعيش معها، وهو هذا المخلوق الصغير، وهى هذه المردة الجبابرة من القوى والطاقات والأحجام والأجرام.

والبحر أحد هذه الجبابرة الضخام التى سخرها الله للإنسان، ﴿**الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون**﴾ فهداه الله إلى شئ من سر تكوينها وخصائصها عرف منه هذه الفلك التى تمخر هذا الخلق الهائل، وهى تطفو على ثبج أمواجه الجبارة ولا تخشاها. ﴿**لتجرى فيه الفلك بأمره**﴾.

فهو سبحانه الذى خلق البحر بهذه الخصائص، وخلق مادة الفلك بهذه الخصائص وجعل خصائص الضغط الجوى، وسرعة الرياح، وجاذبية الأرض، وسائر الخصائص الكونية الأخرى مساعدة على أن تجرى الفلك فى البحر، وهدى الإنسان إلى هذا كله، فأمكنه أن ينتفع به، وأن ينتفع كذلك بالبحر فى نواح أخرى ﴿**ولتبتغوا من فضله**﴾ كالصيد للطعام وللزينة، وكذلك التجارة والمعرفة، والتجربة، والرياضة، والنزهة، وسائر ما يبتغيه الإنسان من فضل الله فى البحار.

قال تعالى فى سورة النحل: ﴿**وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ [النحل: ١٤].

سخر الله للإنسان البحر والفلك، ليبتغى من فضل الله، وليتجه إليه بالشكر على التفضل والإنعام، وعلى التسخير والاهتداء. ﴿**ولعلكم تشكرون**﴾ وهو يوجه قلبه بهذا القرآن إلى الوفاء بهذا الحق، وإلى الإرتباط بذلك الأفق وإلى إدراك ما بينه وبين الكون من وحدة فى المصدر، ووحدة فى الاتجاه إلى الله، ومن تخصيص البحر بالذكر إلى التعميم والشمول. فلقد سخر الله لهذا الإنسان ما فى السموات وما فى الأرض من قوى وطاقات ونعم وخيرات، مما يصلح له ويدخل فى دائرة خلافته.

قال تعالى: ﴿**وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه**﴾. فالله سبحانه وتعالى هو الذى سخر للعباد ما فى السموات وما فى الأرض، وأتاح لهم الانتفاع به فى كل وجه من وجوه الانتفاع، حسب استعدادهم وقدرتهم على التصرف فيه.

ففى السماء: النجوم والكواكب. وهى مسخرة بأمر الله سبحانه وتعالى فى دورانها فى أفلاكها، على ما يرى الناس منها فى جميع الأوقات، وهى قائمة على ما أقامها الله عليه من إرسال أضوائها وأنوارها على الأرض، دون أن يكون للناس شأن أو حول فى تحويل مداراتها أو تغيير نظامها، ثم للناس مع هذا أن ينتفعوا بكل ما أمكنهم الانتفاع به منها.

فإذا كشف لهم العلم عن إمكان اختزان الطاقة الحرارية للشمس، واستخدام هذه الطاقة فى إدارة المحركات، وتسيير البواخر والقاطرات والسيارات وغيرها، فذلك مما سخر الله للناس، ويسر لهم الانتفاع به.

وفى الأرض ما لا يحصى من قوى الطبيعة المختزنة فيها، والتى جعل الله مفاتحها فى يد الإنسان، بما يكشف له العلم من أسرار.

فهذا البناء الشامخ للمدنية، وما تزخر به الحياة، فى هذا العصر من ألوان لا حصر لها هو مما أودعه الله سبحانه وتعالى فى هذه الأرض، وهو ما استطاعت يد الإنسان أن تطوله.

وهناك زخائر لا تزال مطويةً فى صدر الطبيعة، تنتظر الإنسان القادر علي الوصول إليها وكشف الستر عنها. ﴿**الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون**﴾ وقد دل هذا على أن هذا النوع من الآيات يعرفه الإنسان بمجرد الفكر.

والآيتان دعوة إلى أعمال الفكر فى مواجهة هذه القوى المسخرة حتى ينسج الإنسان من هذه الخيوط المتناثرة هنا وهناك ثوباً قشيباً، يتزين به ويكون سمة له،

وشارة تفرق بينه وبين عالم الحيوان الذى يعيش على ما تعطيه الطبيعة دون أن يكون له أثر يذكر فى تحوير شئ أو تبديله.

والفكر لا يكون صحيحاً وعميقاً وشاملاً إلا حين يتجاوز القوى والطاقات التى يكشف سرها إلى مصدر هذه القوى والطاقات، وإلى النواميس التى تحكمها، وإلى الصلة بين هذه النواميس وفطرة الإنسان.

ومن تفكر فى هذه المعانى ازداد إيماناً وشكر ربه، وعرف أن عناية الله ترعى الإنسان. واستيعاب هذا المعنى يقتضى إيماناً بالله واليوم الآخر وشكراً لله.

* * *